

حذار من (الحقيقة)!

بيتر بينسون

مجلة الفلسفة الآن عدد مارس/أبريل 2009

Beware of Truth!

By Peter Benson

Philosophy Now Magazine

ترجمة: علي الحارث

رن جرس الباب، فأسرعت للرد عليه. لأرى رجلا وامرأة متشحين بالسواد يقفان عند عتبة المنزل. ألقيا عليّ تحية الصباح والابتسامة تشع على وجهيهما. ثم قالا والحبور يملؤهما: «إننا نقوم بزيارات إلى سكان هذه المنطقة ليحصلوا على نسخة من مجلتنا». وبزهو رفعا نسخة من مجلة مهلهلة تحمل عنوان (الحقيقة) بحروف كبيرة صارمة.

بيتر بينسون

كاتب متخصص في الشؤون الفلسفية؛ درس في جامعة كامبريدج على يد البروفيسور ميلور أحد المحرضين على الفيلسوف الفرنسي جاك ديريدا.

تملكني الذعر فورا، وقلت بسرعة: «أنا آسف جدا. ليس لدي وقت لتبادل الحديث. إنني في خضم عملية ذبح العنزة التي نذرتها». ثم أغلقت الباب بسرعة في وجهيهما المندهشين.

أتوقع من معظم قراء هذه المجلة أن يتصرفوا بطريقة مشابهة. إن أي شخص يفاجئني برغبته بأن يجلب لي الحقيقة، أو يجلبني إلى الحقيقة، سوف أنظر إليه بعين الريبة. لقد تدبرت أموري بشكل جيد دون الحاجة إلى حقيقتهم، ولست أكيدا من أنني أحتاجها اليوم، على أن ذلك لا يمكن أن يعزى إلى نقص في الفضول لدي، فأنا أنجذب إلى الحقائق أنى كانت علمية أو تاريخية أو شخصية، وأنا على ثقة تامة بأنني لا أزال بحاجة إلى تعلم الكثير من الحقائق الكثيرة المتنوعة الأصناف التي لا تزال تنتظر اكتشافها. أما إذا دعيت إلى تلقي (الحقيقة)، مع التشديد على (ال تعريف)، بشكل متفرد متسلط، فعندها أتوخي جانب الحذر.

حذار من (الحقيقة)!

ويتملكني التوجس ذاته عندما يظهر كتاب فلسفي يرغب بإخباري أهمية الحقيقة. وهو كتاب (أهمية الحقيقة «Why Truth Matters»). لكن ذلك لا يعني مواجهة المرء لغزا محيرا؛ فعندما نسأل سؤالا مثل: «أين تقع أقرب محطة قطار؟». فإننا نفضل بالعادة أن نسمع جوابا صادقا لا كاذبا. إن الأسباب واضحة بما يكفي! ولكن مؤلفي الكتاب، أوفيليا بينسون وجيريمي ستانغروم (Ophelia Benson & Jeremy Stangroom). مقتنعان بأن (الحقيقة) في أزمة، وأن أهميتها تتعرض إلى إنكار على نطاق واسع، وأن عليهما أن يهرعا لمساعدتها. أليس علينا، ربما، أن نعاملهما بالحذر نفسه الذي نواجه به المبشرين اللذين طرقا بابي؟

قد يعجب البعض بأهداف الكتاب، وذلك لما يستعرضه المؤلفان من أمثلة متنوعة عن الإجحاف الايديولوجي والتصحيح السياسي الذي يطال الحقائق الثابتة، وقد تم استقاء معظم هذه الأمثلة من الدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية والثقافية. مع أن المؤلفين يؤمنان بوضوح بأن منشأ هذه التحديات الموجهة للحقيقة إنما يكمن ضمن الإطار الفلسفي، وهما يصرحان بأن أهدافهما الرئيسية هي «ما بعد الحداثة (Postmodernism)، والنسبية المعرفية (Epistemic Relativism)، واللاواقعية (Anti-realism) ... وما إلى ذلك». (ص18) ويقترحان في ما بعد أن أصل هذه الأفكار الرائجة حاليا يعود في جزء منه إلى «مجرد خواطر في رأس جاك ديريدا». (ص167) وقد يصاب المؤلفان بالدهشة إذا علما بأن جاك ديريدا (Jacques Derrida) ذكر في كتاب (الطريق المتمم «Counterpath») الذي ألفه بالتعاون مع كاثرين مالابو (Catherine Malabou) أنه لا يعلم شيئا عن ما بعد الحداثة، وليس هذا الإنكار خاصا بهذا الكتاب، بل يمكن مصادفته في كتب أخرى لديريدا.

لقد ظهر في الآونة الأخيرة الكثير من الكتب والمقالات التي تصرح برغبتها في الدفاع عن الحقيقة في وجه هجوم ما بعد الحداثة. وهنا نسأل من هم فلاسفة ما بعد الحداثة الذين يعاملون (الحقيقة) بهذه اللامبالاة؟ وما هي ما بعد الحداثة بالضبط؟

ما بعد الحداثة (Postmodernism) ... ما هي؟

هذا السؤال يدخل إليه التعقيد من باب استخدام مصطلح (ما بعد حداثي Postmodern) في العديد من المجالات البحثية المختلفة التي لا تصادف فيها خروجاً عن الاقتصار على أحد معاني هذا المصطلح. وربما نجد أكثر الاستخدامات رصانة في ميدان الفنون حيث نجد أساليب معينة في الهندسة والأدب والرسم معروفة بأنها (ما بعد حداثية). وفي كل واحد من هذه الأساليب جاء المصطلح من وجود أسلوب سابق يعود إلى أوائل القرن العشرين ويعرف بأنه (حداثي) كما هو الحال في لوحات بيكاسو، وروايات جيمس جويس، وعمارة لوكوربوسيه. أما في الفلسفة فلا يمكن العثور على تعريف بهذا الوضوح للفلسفة (المابعدحداثة) إذا أردنا استعمال الطريقة ذاتها في التعريف.

تقوم المناهج الدراسية الجامعية في العادة بتصنيف الفلسفة (الحداثية) باعتبارها تبدأ مع الفيلسوف ديكارت، وذلك بالتضاد مع الفلسفات القديمة عند الإغريق والرومان وفلسفات العصور الوسطى. ولا شك في أن ديكارت تلقى ردوداً على ما طرحه بدءاً من معاصره باسكال، وهذا الأمر يعتبر من صميم طبيعة النقاش الفلسفي. ولا يوجد دليل واضح على وجود رد فعل بعينه على الفلسفة الحديثة ككل. وإن كان هنالك رد فلا يعرف متى حدث؛ كما إن المدى الزمني لهذه الفلسفة يختلف بشكل واضح عن مثيله في الفنون: فديكارت، الفيلسوف الحداثي الأول عاش في الفترة (1596-1650)، بينما عاش مانيه، الذي يمكن اعتباره الرسام الحداثي الأول، في الفترة (1832-1883)، فإذا كانت الفترات (الحداثية) مختلفة إلى هذا الحد في هذين المجالين، فلنا أن نتوقع الاختلاف ذاته بين أي فترتين (حداثيتين).

ثمة أمر أهم من السابق، وهو أنه لم نعلم بوجود فيلسوف وصف نفسه بأنه (ما بعد حداثي)؛ فهذا المصطلح يكاد ينحصر استخدامه عند الانتقاد. وبالرغم من أن جان فرانسوا ليوتار (Jean-Francois Lyotard) ألف كتاباً عام 1979 بعنوان (الحالة مابعدالحداثية) والذي اجتذب أنظار شريحة واسعة من القراء، فإنه لم يعتبره، في الواقع، أحد كتبه

حذار من (الحقيقة)!

الفلسفية المعبرة عنه. والتي هي أكثر توجهها إلى شريحة الفلاسفة مما حد كثيرا من الشريحة القادرة على قراءتها؛ ولم يكن في هذا الكتاب محتوى فلسفي غير ما يتعلق بتطبيق ملاحظة فيتغينشتاين حول (ألعاب اللغة) في حقل علم الاجتماع. وذلك بطلب من الحكومة الكندية التي أرادت تقريرا حينها حول الآراء السائدة بخصوص المعرفة. لقد استنتج ليوتار حينها بأن انهيارا واسعا أصاب إيمان المراقبين الأساسيين لعملية تطور المعرفة البشرية. وتبينت فيما بعد الدقة العالية لتنبؤاته حول التغيرات المتتالية التي قد تنشأ بسبب ذلك في الجامعات وغيرها من مؤسسات التعليم العالي. مع العلم بأنه لم يكن حينها يقول باحتمالية وجود مثل هذا النقص في الإيمان. وإنما كان يقدم تقريرا حول حقيقة اجتماعية.

وبالطريقة ذاتها نجد المحلل الاجتماعي جان بودريلار (Jean Baudrillard). الذي يميز دائما بأنه مابعدحدثي. يصف جوانب العالم المعاصر الذي يراه مضطربا. فيندب بنبرة محافظة طريقة عيشنا التي تنحصر يوما بعد يوم في الواقع الافتراضي. بعيدة عن أي نقاط ارتساع قابلة للتمييز. ولا شك في أنه لا يقصد المديح بذلك.

إن وصف ليوتار أو بودريلار بأنهما مابعدحدثيين يشبه وصف كارل ماركس بأنه رأسمالي لمجرد أنه كتب وصفا للمجتمع الرأسمالي؛ فهما ليسا من الداعين إلى ذلك. وفي الحقيقة. لا أعتقد بوجود أية حركة معروفة أو مدرسة معينة في التفكير يمكن أن ندعوها بدقة «فلسفة مابعدالحدث». فالفلاسفة الذين يندرجون في العادة تحت هذا التصنيف يختلفون فكريا إلى حد لا يشكلون فيه مدرسة. ولا هم في الأساس يدعون الانتماء إلى مثل هذه الهوية الجامعة. إن هذا يجعلني أشك بالكتاب المتحمسين لحمايتنا من الأخطار المزعومة «لفلسفة مابعدالحدث». وفي سبيل ذلك من السهل استعمال أعداء خياليين لخلق حالة من الخوف بعيدة عن التفكير العقلاني كما حدث. مثلا. في أمريكا مع حقبة المكارثية. وكي لا يظن أحد بأنني أبالغ هاهنا. فإني أدعو للتمعن في النبوة التخوفية التي تبناها الكاتب سيمون بلاكبيرن (Simon Blackburn) بالرغم من أنه في الغالب ينحو منحى

حذار من (الحقيقة)!

جديا رصينا، وذلك في كتابه (الحقيقة: دليل الحيارى «Truth: A Guide for the Perplexed»):
حيث كتب في المقدمة:

ثمة أمر خبيث في الفلسفة النسبية وتعدد الثقافات وما بعد الحداثة... أمر من شأنه أن يفسد ويدمر الجامعات والثقافة العامة، ويمحو القيم الأخلاقية، ويخرب عقول الشباب، وينخر حضارتنا الغالية من الداخل.

ويقرن بلاكبيرن ما بعد الحداثة بكتابات الفيلسوف جاك ديريدا على الأخص. كما أن اسم ديريدا هو أول ما يرد على لسان بينسون وستانغروم في افتتاحية هجومهما على ما بعد الحداثة: ولكننا إذا نظرنا إلى ما اضطرنا لذكره حول كتابات ديريدا فسنجد أنهما أسندا مهمة النقد الموثق إلى عالم المنطق الأمريكي كوين (W.V. Quine).

ديريدا وحادثة كامبريدج

كان كوين أشهر عضو في مجموعة ضمت 19 أكاديميا من جميع أنحاء العالم وقعوا رسالة إلى صحيفة تايمز اللندنية عام 1992 احتجاجا على ترشيح ديريدا لنيل شهادة فخرية من جامعة كامبريدج. وقد أورد بينسون وستانغروم هذا المقطع من الرسالة: «في نظر الفلاسفة، وبالأخص من يعمل منهم في كليات الفلسفة الرائدة حول العالم، لا تتوافق كتابات ديريدا مع المعايير المقبولة في مجال الوضوح ودقة الضبط»، وبذلك استنتج كوين ورفاقه أن ديريدا لا يستحق مثل هذا الشرف طبقا للحجة السابقة.

جذبت هذه الحادثة حينها أنظار وسائل الإعلام العالمية لمدة محدودة، مع أن وسائل الإعلام لا تلقي في الغالب بالا للخلافات الأكاديمية. وكانت حينها هذه الدرجة الشرفية قد مضى عليها 30 عاما دون أن يتم الاعتراض على الأسماء المرشحة لنيلها، ووفق الإجراءات التقليدية المتبعة، تم التصويت من قبل كافة أعضاء الجهاز الأكاديمي في الجامعة، وتبين أن أغلبية واضحة تؤيد منح الدرجة لديريدا (336 صوتا مقابل 204)، وبالرغم من

حذار من (الحقيقة)!

ذلك تم تسجيل اعتراضات واسعة النطاق سواء أكان ذلك من أعضاء كلية الفلسفة في جامعة كامبريدج بقيادة ميلور (D.H. Mellor). أم من فلاسفة خارج الجامعة مثل كوين.

جاء رد ديريدا في مقابلة معه نشرت لأول مرة على صفحات مجلة كامبريدج ريفيو (The Cambridge Review). وحواسها كتابه (وجهات نظر Points) الصادر عام 1995. وحوث المقابلة شرحا وافيا نقض الطرائق التي استخدمها معارضوه للتقليل من أهمية كتاباته. وهي مقابلة جديرة بالقراءة لكل من يميل مع الرفض الواسع الذي تلقاه كتابات ديريدا.

كان كوين ورفاقه صريحين بالتأكيد في طرح رؤاهم. فأعلنوا بأن كتابات ديريدا:

تبدو لنا أرفع بقليل من مجرد كونها هجمات شبه ذكية على قيم العقل والحقيقة والثقافة الأكاديمية... إن كتاباته توظف نمطا مكتوبا عصيا على الاستيعاب... ولكن عندما يبذل الجهد لاختراقه. يبدو بوضوح -لنا على الأقل- أن الطروحات المترابطة فيها -إن وجدت- إما أن تكون زائفة أو تافهة.

وكان رد ديريدا على ذلك:

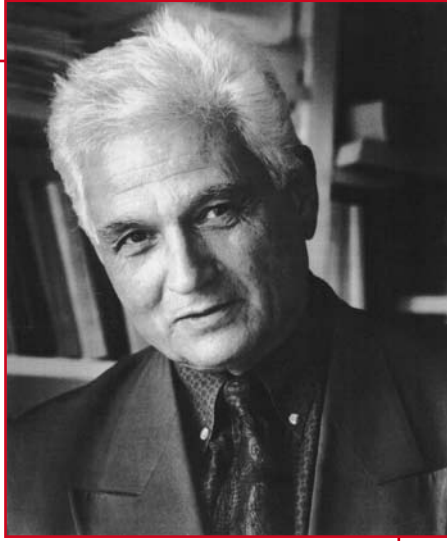
كيف يمكن لهم أن يقولوا أن ما أكتبه «عصي على الاستيعاب» عندما يشجبون ما له من تأثير شديد. وأن ينتهي بهم المطاف إلى القول بأنهم أنفسهم قد فهموا جيدا أنه ما من شيء يمكن فهمه في كتاباتي عدا الزائف والتافه؟.

لم يكن في رسالة التايمز أمثلة على ما يمكن أن تكونه تلك الطروحات الزائفة أو التافهة. وفي الحقيقة اقتصر اقتباسهم عن ديريدا بعبارة لم تكن في أي من مؤلفاته! وذلك لعرض ما يقوم به ديريدا من تلاعب مزعوم بالألفاظ. وهنا لا نستغرب ما أكد عليه ديريدا عندما قال بأن رسالتهم:

حذار من (الحقيقة)!

تنتهك المبادئ ذاتها التي ادعى هؤلاء الأكاديميون التحدث باسمها (العقل والحقيقة والثقافة الأكاديمية)... إنني هنا لا أدعي بأني على صواب. أو أن على الآخرين أن يصدقوني لمجرد طلبي ذلك. ولكن ما أريده أن يتكبد من يريد انتقادي عناء ذلك. فليقرأ ويقتبس ويستعرض وما إلى ذلك.

لكن أحدا ممن انتقدوا ديريدا حينها لم يستجيب إلى هذا التحدي. وفي مقالة نشرت



ديريدا

في السنة التالية (1993) في العدد السابع من مجلة كوغيتو (Cogito) استمر ميلور في تمسكه بالهجوم الذي شنه من قبل. وكرر اتهامه لديريدا بأن كتاباته «ليس لها أي معنى حقيقي» وأنها «مفتوحة على عملية إعادة تفسير اعتباطية لا نهاية لها من قبل القراء». وفي هذه المرة أيضا لم ترد إشارة إلى الموضوع الذي ينبغي أن يكون فيه ديريدا قد قال شيئا مماثلا. إن كل من قرأ النقاش الحماسي بين ديريدا وفوكو حول تفسير نص ورد في كتابات

الفيلسوف ديكرت لا يمكن أن يستنتج بأن أيا من الفيلسوفين يعتقد بأن النصوص يمكن أن تفسر بأي طريقة نشاء. ومع ذلك، قرن ميلور ورفاقه ادعاءهم السابق مع ادعاء آخر بأن ديريدا «يرفض التمييز بين الحقيقة والخيال» ليكونا الزعمين اللذين يستعملان بكثرة من قبل معارضي ديريدا. ودائما ما يكون ذلك دون الإشارة إلى المصدر من كتابات ديريدا.

نظرا إلى ما سبق، تجدر الإشارة إلى نص ينكر فيه ديريدا صراحة الادعاءات المنسوبة إليه. ففي مقابلة حواها كتاب (الحياة طبقا للنظرية Life After Theory) يقول ديريدا:

حذار من (الحقيقة)!

هنالك، بالطبع، أنماط من النصوص التاريخية لن أسمح لنفسي بحصرها في المجال الأدبي... سيكون من السخف فعل ذلك.

وبهذا يؤيد ديريدا صراحة التمييز بين الحقيقة والخيال. ثم يشرح ذلك بقوله:

عندما تكون هنالك إمكانية لتوفر المصادقية والنزاهة والشمولية في معنى لقول أدلى به شخص ما، ينبغي في الوقت ذاته أن يبقى الباب مفتوحاً لإمكانات أخرى كالفشل أو الكذب أو غير ذلك. إن هذا يشكل بنية اللغة؛ وإلا فلن يكون هنالك حقيقة. إنني أشدد على هذا الأمر لأنني إن لم أقل ذلك سيتم اعتباري شخصا معاديا للحقيقة، أو أنني ببساطة لا أؤمن بالحقيقة. لا إنني مرتبط بالحقيقة.

إن أية من وجهات النظر تلك لم تكن جديدة على ديريدا، ولا تمثل تغيراً في موقفه، ولن تفاجئ أي قارئ متمعن اطلع على كتبه السابقة. ولقد ورد اسم الكتاب الذي احتوى تلك المقابلة ضمن كتاب بينسون وستانغروم فمرا عليه مرور الكرام دون أن يبدو بأنهما قرأه؛ فهل هما لا يجدان أهمية في إنكار ديريدا للآراء المنسوبة إليه؟ ومما يثر السخرية أنهما خصصا كتابهما لمناصرة قيم «المحاججة العقلانية وضرورة الإشارة إلى البراهين». وهذا معيار لم يلتزما به في مناقشتهم لكتابات ديريدا.

إن محاكمة ديريدا من قبل الأكاديميين البريطانيين والأمريكيين تبدو شبيهة جداً بالمحاكمة الواردة في قصة (أليس في بلاد العجائب). إذ جاءت الإدانة دون إبراد أي دليل، وعندما تحدث المتهم دفاعاً عن نفسه، تجاهلوا ما قاله. وبما أن متهميه يدافعون عن الحقيقة (جنباً إلى جنب مع العقلانية والعمل العلمي الأكاديمي)، فقد أحسوا بأنهم غير مطالبين بتوفير الدقة في طرح الحقائق، ولم يتورعوا عن تجاهل أية حقيقة بعينها كالاقتباسات التي أوردتها في ما سبق.

حذار من (الحقيقة)!

إن ما سبق يجعلنا نتفاجأ حين نقرأ المقطع السابق من السيرة الذاتية للفيلسوف كوين، والتي طبعت قبل سبعة أعوام من حادثة كامبريدج:

عانت تعاليمي من تشويه متعنت لو تشاركته مع المنتقدين لكان دفعني إلى الانضمام معهم في الهجوم عليها دون موارد... إن الاختلاف يؤدي إلى نتيجة إضافية، سواء أكانت مثمرة أم لا. ومن هنا يكون للتشويه النتيجة ذاتها.

إن من المعيب أن هذه الأفكار لم تكن في ذهن كوين عندما وقع رسالة الرفض الجماعي في حق فيلسوف آخر.

الأغاليط (Factoids)

إذا كانت الخصائص الواردة في ما سبق حول فلسفة ديريدا (وغيره) زائفة، فلماذا يتم ترديدها بهذا التواتر؟ إن هذا السؤال يرد عادة من باب أنه (لا دخان من دون نار)، ومن وراء ذلك تقف (نظرية الحقيقة) المسؤولة عن الآليات المتبعة في الدعاية السياسية (البروباغندا) والتجارية، والتي تقول: إذا كررت ذكر أمر ما بما فيه الكفاية فسيتحول إلى حقيقة. ويمكننا فهم آلية عمل هذه النظرية من خلال نظرية (الميمات) التي جاء بها الفيلسوف ريتشارد دوكينز (Richard Dawkins). فالأكاذيب تتكاثر (تضاعف، تنتشر، تزداد) بطريقة مشابهة للتكاثر الفيروسي، وذلك بوتيرة أسرع مما يحدث بالمقارنة مع الحقائق؛ وهي تجد لها مستقراً في (بركة الميمات) الاجتماعية بشكل مشابه لما يحدث لاستقرار الصفات الجينية في (بركة الجينات)، وتشمل (بركة الميمات): الصحف والكتب والأحاديث اليومية. حتى أن هنالك مصطلح لهذه الكيانات الفيروسي: الأغاليط.

يعرف قاموس أوكسفورد كلمة أغلوطة (Factoid) بأنها: «أمر يصبح مقبولاً كحقيقة، وإن كان ليس كذلك». ويعود أول استخدام لهذا المصطلح إلى عام 1973 في كتاب للروائي الأمريكي نورمان مايلر، فهي إذن كلمة حديثة الابتداء، وليس ذلك بغريب، فالازدياد المضطرد

حذار من (الحقيقة)!

لوسائل الإعلام، والتوسع المتسارع لشبكة الانترنت قد أدى إلى تضاعف كبير في الألفية التي يمكن للأغاليط أن تمر خلالها. وإليك مثالا عنها: «فازت الفنانة تريسبي امين بجائزة تيرنر عن سرير غير مرتب». ففي الواقع دخلت امين في قائمة أكثر المرشحين حظوظا لنيل الجائزة، لكنها لم تفرز بها؛ كما أن هذا الترشيح جاء عن مجموعة غنية من الأعمال، بما في ذلك لوحات وأفلام، وليس عن السرير غير المرتب وحده. لكن الأغلوطة تكررت كثيرا بما يكفي لتعمل وكأنها حقيقة، وبالرغم من أن التحقق منها أمر سهل، فإن الصحفيين يفضلون نسخ الأغاليط الواردة من زملائهم؛ ويصبح الأمر ذات طبيعة خاصة تثير الأذى عندما يحدث ذلك في حقل الفلسفة، وذلك لأنه يتناقض مع الأساس ذاته الذي تقوم عليه.

لقد بدأت الفلسفة عندما فصلت نفسها عن السفسطة التي كان مناصروها (كما يمثلها افلاطون على الأقل) مهتمون بكيفية نشر الأفكار وتجديرها في أذهان الناس باستخدام البلاغة؛ لكن سقراط كان يسعى في المقابل خلف الأساليب التي تمكنه من اكتشاف ما إذا كانت هذه الأفكار حقيقية أم لا، وذلك من خلال مقابلتها بالحجج والتدقيق في أصولها.

إن هؤلاء السفسطائيون يشبهون المبشرين الذين يأتون إلى عتبة دارك، فيحدثونك بلسان عذب، ويكدسون أفكارهم كلها في كتلة من الكلام البديع: (الحقيقة) الوحيدة متوفرة الآن بسعر خاص؛ فعلى العكس من سقراط، دأب السفسطائيون على تقاضي الأجور مقابل خدماتهم. إن علينا أن نأسف لكل انحدار للفلسفة في دروب السفسطة، لكن ما وقع كان غير ذلك... يقول ديريدا في مقابلة مع مجلة كامبريدج ريفيو:

إن معظم التشويه والتبسيط والحماقات التي انتشرت في الصحف والإذاعة والتلفزيون حول حادثة كامبريدج تمت صياغتها أساسا في النطاق الأكاديمي، وذلك من خلال نوع من الرأي العام الذي تم بثه من خارج الجامعة.

حذار من (الحقيقة)!

إن موجة الجدل الغاضب التي نتجت عن ذلك قد تبدو وكأنها تفصيل صغير: فمهما كان من أمر. حصل ديريدا في النهاية على التكريم، وهو أمر لم يكن له بأي حال من الأحوال تأثير على مهنته. لكن حادثة كامبريج ساعدت في الترويج للعديد من الأغاليط التي انتشرت بعد ذلك على نحو واسع ودون إمكانية. كما يبدو. لأن تتوقف عند حد معين. ولا أشك في أن مقالتي هذه عاجزة عن إحداث تغيير كبير في هذا المجال. وعندما توفي ديريدا عام 2004 لم تكذ مقالات التأييد في الصحف البريطانية تخلو من ذكر لحادثة كامبريج. وفي كتاب بينسون وستانغروم كان انتقادهما المباشر لكتابات ديريدا مقتبسا بالكامل من ادعاءات كوين ورفاقه في رسالتهم الشهيرة. أضف إلى ذلك أن الصحفي جوهان هاري (Johann Hari) كتب في معرض تقريره عن كتاب (من أين تأتي أهمية الحقيقة؟): «يجب أن يسن قانون يفرض على كل من يبيع كتابا لجاك ديريدا أن يرفق معه نسخة مجانية من هذا الرد اللامع». وبهذا استمرت الأغاليط بالانتشار.

كان هاري قد هاجم ديريدا بمقال غاضب مسيء نشرته صحيفة الاندبندنت في أكتوبر 2004 بعد بضعة أيام على وفاة ديريدا. وكان عنوان المقال «لماذا لن أحزن على ديريدا». ودون أي اعتبار للتقاليد المتبعة في احترام من يتوفى حديثا. أعطى هاري لنفسه الحرية في هذا المقال بإعطاء صورة خاطئة جملة وتفصيلا عن أفكار ديريدا. بل إنه نسب إليه أموراً تتناقض تماما مع ما كان يعتقد به. إن الاعتقاد على مصادفة هذه الأكاذيب أوجد عذرا للصحف عن تقصي مصداقيتها. كما إن القوانين التي تعاقب على الإساءة الانتقادية تفقد صلاحيتها بعد وفاة المنتقد. حتى وإن لم يمض على وفاته إلا أيام قلائل.

من الصحيح أن كتابات ديريدا صعبة وتحتاج إلى قراءة متمعنة إن كان القارئ يرغب بفهمها على نحو مناسب؛ لكن ذلك يمكن أن يقال عن أسماء أخرى في تاريخ الفلسفة أمثال سبينوزا وكانت وهيغل؛ فلماذا يفترض الناس أنهم ينبغي أن يكونوا قادرين على قراءة أي كتاب فلسفي بسهولة. مع أنهم يطلبون إرشادا أو معلومات عند قراءة كتاب في الفيزياء المتقدمة؟! وبالرغم من هذا يشدد هاري. كما كوين. على أن القارئ «عندما يعرف

حذار من (الحقيقة)!

كيف يستخلص أفكار ديريدا من كتاباته فإنه يراها حينها شديدة البساطة والخبث». لكن استخلاصات هاري لا علاقة لها بالأفكار الحقيقية لديريدا. وإليك مثلا من كلام هاري:

كل ما يمكن أن نأمل بتحقيقه هو أن نؤسس «ميتافيزيقيا الحضور». حيث نحاول جلاء فوضى اللغة عن عقولنا ونجرب عدة أمور بشكل مباشر ونقي. إن طريقة ديريدا في تدمير اللغة هي (التفكيكية).

لا يعدو ذلك كونه محض هراء! إذ كان ديريدا يعتقد أنه لا يمكننا أبدا «أن نصفي أذهاننا من فوضى اللغة». وفي الواقع. كان ديريدا يسعى حقا إلى «تفكيك» ما يسمى «ميتافيزيقيا الحضور» (من الواضح أن هاري تعثر بهذا المصطلح خلال جولته السريعة في كتابات ديريدا. وذلك لأنه استخدمه مرتين دون أن يفهمه في كليهما): ومن يألف الفلسفة التحليلية يعلم أن هذا المصطلح يقترب بقدر ما من مصطلح «أسطورة المعطيات» التي حللها. وبالإمكان القول: «فككها». ويلفريد سيلارس (Wilfrid Sellars) خلال خمسينات القرن الماضي؛ وذلك في رد فعل منه ضد المنطق الواقعي الذي أثر على الفلسفة الانغلوأمريكية في ذلك الوقت على نحو مشابه لرد فعل ديريدا ضد الظواهرية (phenomenology) التي سادت في فرنسا عند بداية ديريدا لعمله.

استمد ديريدا من تلك الهواجس نتائج ذات أثر على الصعيد السياسي: ف«ميتافيزيقيا الحضور» ترفع فكرة الديمقراطية. أو أي هدف مثالي آخر. إلى درجة الإنجاز والانطلاق الكامل. بدلا من رأي ديريدا بأن تعتبر سلسلة لامتناهية من الأحداث التي تؤدي إلى «الديمقراطية التي سوف تأتي». مع الانتباه إلى التأكيد على «سوف» المستقبلية دائما.

إنني لن أحاول هنا. طبعا. أن أقدم شرحا وافيا لفلسفة ديريدا. فهذا عمل يحتاج إلى وقت وصبر وصفحات كثيرة؛ ولكنني ألتمس من القارئ، إن شعر برغبة الإحاطة بفلسفة ديريدا. أن يبدأ أولا باستثناء جميع الأغاليط واسعة الانتشار مثل: (ديريدا لا يؤمن بالحقيقة).

حذار من (الحقيقة)!

أو (ديريدا يعتقد أن النص بإمكانه أن يعني كل ما ترغب بأن يعنيه)؛ فهذه المقولات تبقى بعيدة عن الحقيقة مهما كثر المرردون.

الخلاصة

أود في ختام المقالة أن أورد حادثتين في حياة ديريدا لهما شبه يثير القلق بحادثة كامبريج. فعندما كان ديريدا يدرس في الجزائر، حيث نشأ، تم فصله من المدرسة عندما تولى نظام فيشي الموالي للنازية زمام الحكم في فرنسا ومستعمراتها بعد سقوط باريس في الحرب العالمية الثانية. وذلك بسبب ديانتته اليهودية. وهو أمر لم يكن له من قبل غير تأثير ضئيل في حياته. لقد عانى ديريدا من الإقصاء من المؤسسة التعليمية دون حق بالاعتراض. تماما كما تعرض له لاحقا من قبل فلاسفة كامبريج الذين حاولوا إبعاده عن مجموعاتهم النخبوية.

بعد ذلك بمدة طويلة، وحينها كان ديريدا فيلسوفا شهيرا، قام بزيارة إلى براغ إبان الحكم الشيوعي للمشاركة في لقاء لكتاب المعارضة هناك، وبينما كان يهم بمغادرة تشيكوسلوفاكيا، تم اعتقاله في المطار فجأة وسيق إلى السجن بسبب كمية من المخدرات تبين في ما بعد أن الشرطة السرية التشيكية كانت قد دستها في متاعه. وبعد مفاوضات دبلوماسية أطلق سراح ديريدا دون أن يقضي فترة طويلة في المعتقل. لكن هذه الحادثة أصابته بالفزع دون ريب. عندما استجمع ديريدا أفكاره في ما بعد، أدرك أن الوقت الوحيد الذي قد يكون تم فيه دس المخدرات في متاعه هو حين غادر الفندق لزيارة قبر فرانز كافكا! وفي إحدى روايات كافكا (المحكمة) يبدأ الفصل الأول بالكلمات التالية: «هنالك من كان ينشر الأكاذيب حول جوزيف ك.»، وعلى نحو مشابه كان أعداء كافكا من الفلاسفة يكررون نشر تقارير زائفة مفضوحة حول أفكاره.

إن هذه الحوادث الثلاث: في الجزائر وبراغ وكامبريج، تتوحد بما فيها من غياب للعدالة في معاملة ديريدا. وإذا كانت حادثة كامبريج تبدو أقل خطورة من سابقتها، فإن علينا أن لا

حذار من (الحقيقة)!

ننسى أن ديريدا لم يكن يسعى خلف تكريمه. بل إنه بالكاد كان قد أحيط علما بترشيحه قبل أن يتم إخباره باحتمال حصول جدل حول ذلك وأن الجدل قد يؤدي إلى تسليط الأضواء عليه. لقد وفرت تلك الأضواء فرصة لمناوئيه في نشر الأكاذيب حول كتاباته. ولا تزال هذه الأكاذيب تقوم حتى يومنا هذا بقولبة الرأي العام حول فلسفته. إن انتقاد ديريدا لمناوئيه لم يكن حول اختلافهم معه فلسفيا. فالاختلاف جزء من العملية الفلسفية الطبيعية. ولكن كان موجها لما ارتكبه من إساءة عرضهم لأعماله. وتجاهلهم للدفعات التي كان قد وضعها سلفا ضد انتقاداتهم. وبهذا كان اعتراضه مبنيا. في هذه القضية. على أساس المطالبة بتحقيق العدالة؛ وربما يفسر هذا تركيز اهتمامه في أعماله التالية على طبيعة العدالة.

إن الهدف من كتابه هذه المقالة متواضع وسقراطي في آن واحد. لقد كان سقراط يوجه الأسئلة للناس ليعرف إن كانوا يملكون أي دليل على «الحقائق» التي كانوا يعتقدون بأنهم يعلمونها. وبالطريقة ذاتها. أقترح أن على المرء أن يتساءل في ما إذا كان الكتاب يملك المعلومات الكافية عما يكتبون. وذلك لإرساء آرائهم على أرض ثابتة؛ وعلى المرء ألا يتبنى أبدا تلك الآراء دون أن يتحقق أولا من «الحقائق» التي يشيرون إليها. يشدد بينسون وستانغروم في كتابهما على أن: «من المؤكد أن الانسجام صفة طبيعية للحقيقة: فإذا انطبقت معاييرها على جزء. انشملت الأجزاء الأخرى بها». يبدو هذا الرأي صائبا لأول وهلة. لكن ذلك غير صحيح: فالحقائق في مجال المقولات الأخلاقية مختلفة تماما في طبيعتها عن الحقائق في المقولات التجريبية. إن الحقيقة ذات نطاقات متغيرة. إن على المرء أن يكون حذرا بالأخص ممن يعلنون الدفاع عن (الحقيقة). مع التشديد على (ال) التعريف. فحماسهم لذلك قد يؤدي بهم إلى عدم العناية بدقة حقائق صغيرة متعددة معينة قابلة للتحقق والمعارضة. وهذا التحقق والجدل السقراطي من السهولة بمكان أن يتحول إلى مسألة ثانوية عندما تكون عربة الحقيقة مندفعة بأقصى سرعتها. ساحقة من يدعي معارضتها تحت عجلاتها.